الأثر الإيقاعي للتنغيم في سورة المائدة

أ.محمّد بولخطوط جامعة محمد الصديق بن يحي جيجل

ملخص:

يعالج البحث ظاهرة صوتية لها أهمية بالغة في تحديد الدلالة، ألا وهي: ظاهرة التنغيم؛ وذلك من خلال ما يخلّفه الإيقاع الصوتي الملازم لها من تلونات تنغيمية، تتراوح ما بين الصعود والهبوط والاستواء، ومدى تأثير ذلك على توضيح المعاني والدلالات في آي سورة المائدة.

Résumé:

La recherche porte sur l'importance d'un phénomène acoustique dans la détermination du sens :le phénomène de la tonification et cela de ce qu'il engendre comme rythme vocal nécessaire aux différentes connotations toniques, variant entre l'ascendante, la descendante et la stable; et son impact dans la détermination des sens et des teneurs des Versets de *Sourat El Maïda*.

أقام علماء اللغة والأصوات نظرية استطاعت على المستوى النظري، أن تكشف عن النظام الذي تنطوي عليه وظيفة الصوت داخل نظام أية لغة، واستطاعت على المستوى التطبيقي أن تحلّ كثيرا من المشكلات العلمية في تعلّم اللغات، كما استطاعت هذه النظرية أن تقدّم فكرة أصلية للتحليل اللغوي، وهي فكرة الملامح فوق/غير التركيبية؛ أي الخصائص الصوتية التي تميّز فونيما عن فونيم آخر، ومن ثمّ أصبح مفهوم الفونيم عبارة عن مجموعة من الملامح المميّزة التي تنبع من الخصائص النطقية والسمعية والتي تحدّد كلّ صوت من أصوات اللغة مثل موضع النطق وصفته وغيرهما.

وهاته الملامح الصوتية تقع خارج البنية اللغوية، وهي ما يطلق عليها علماء اللغة والأصوات الملامح فوق/غير التركيبية، لأنّها لا تدخل في جوهر التراكيب اللغوية كما هو الحال مع الصوامت والصوائت، بيد أنّ لها تأثيرات موجّهة للبنى الوظيفية، ومن هذه الملامح التمييزية **التنغيم**. فما المقصود به؟، ثمّ كيف يؤثر إيقاعيا على إبراز المعنى؟.

أولا: تعريف التنغيم

1 ــ لــغة: عرّف صاحب معجم "مقاييس اللــغة" التنغـيم فـقال: «نَغَمَ: النون والغين والميم ليس إلاّ النغــمة، جرس الصوت بالقراءة وغيرها وهو النَّغمُ، وتنغَّمَ الإنسان بالغناء ونحوه»[1].

إذن فالتنغيم في اللغة يعني الغناء وتلحين الكلام وتنميقه بُغية أن يكون حســنا في السمع.

2 ــ اصطلاحا:

لقي التنغيم شأنه في ذلك شأن بقية الظواهر فوق التركيبة اهتماما من لدن الدار سين المحدثين أكثر من غيرهم، لاسيما وأنّه يُعْرَفُ بموسيقى الكلام على حدّ تعبير"إبراهيم أنيس" كونه يضع العبارة، أو الجملة في قالــب تلحيني موسيقي مميّز، وفيما يلي عرض وجيز لبعض هذه التعريفات التي صاغها هؤلاء الباحثين لهذا المفهوم:

* **تعريف "الفارابي"** يعرّف الفارابي التنغيم مسـتعملا مصـطلح "النغم" للدلالة عليه فيقول: «والنغم: الأصوات المختلفة في الحدّة والثقل التي تتخيّل أنّه ممتدّة»[2].

* **تعريف "شاهر الحسن":** يعـرّف التنغيم بقوله: «التنغيـــم يعـــني التغـــير في درجـــة الصـوت ارتــفاعا أو هبوطا أو استواءً من بداية الجملة (أو العبارة) حتى نهايتها»[3].

* **تعريف "مصطــفى حركـــات":** هو: «تغير في ارتفــــاع النغمة يخصّ سلاسل أطـــول من التي ينطــبق عليها النــبر، وغالبا ما يخصّ الجملة أو شبه الجملة»[4].

* **تعريف "محمد إســحاق العناني":** التنغيم في علم الأصـوات هو: «الدراســة التي تعنى بالتغيّرات التي تطرأ على حركة النغمات واتّجاهاتها من حيث الهبوط أو الصــعود أو كليهما، ويعتبر المقطع الوحــدة الصوتــية الأساسية التي تــتركّز عليها دراســة التــنغيم لاســيما درجــة الصــوت التي تلــفـــظ عليها، فقد يلفظ المقــــطع على نغــمة عــالية أو نغمة منخفضة، أو نغمة متقلّبة (صعودًا، ثمّ هبوطًا أو بالعكس»[5].

اتفقت جميع هـذه التعريفـات التي أتينـا على ذكرهـا في: أنّ التنغيم هو تغير على مســـتوى الصوت، إمّا صعــــودا وإمّا نـــزولا، وإمّا توســـطا أو اعتدالا، وبتـــعبـــير أدق فإنّ الــتنــغيم هو الارتــفــاع أو الانخفاض في درجة الجهر بالصوت، وذلك منوط أساسا باختلاف نسبة اهتزاز الوترين الصوتيين.

ثانيا: علاقات التنغيـــــم

للتنغيم علاقات كثيرة ومتعددة يمكن إبراز بعضها في النقاط التالية:

1 ــ بين النغمة وبين اللحن:

يفرق بعض الدارســين بين النغمة واللحن، فأمّا النغمة فيُقصــد بها: «تنغيم المقطع الواحد في عموم المجموعة الكلامية، فتوصـف النغمة بأنّها صـاعدة أو هابطة أو مسـتوية، وأمّا اللحن فهو مجموع النغمات في المجموعة الكلامية؛ أي الترتيب الأفقي للنغمات، ويقترب معنى اللحن من دلالة مصطلح التنغيم»(6).

2 ــ بين التنغيم وبين النغمة:

يعدّ كلّ من التنغيم والنغمة فونيما غير تركيبي أو ظاهرة فوق تركيبية؛ ذلك أن مثل هذه الظواهر الصـوتية الوظيفية ليسـت جزءً من التركيب نفسـه؛ أي أنّها ليسـت عناصـر مكونة للتركيب الصوتي للغة كما هو الحال مثلا مع الصوامت والصوائت، هذا فضلا عن كون التنغيم مثله مثل النغمة «توالي درجات صــوتية مختلفة أثناء النطق، أو بعبارة أخرى هو الارتفاع والانخفاض في درجة الصـوت أثناء الكلام»(7)، وما يفرّق بينهما: أنّ النغمة هي «ارتفاع الصـوت وانخفاضــه على مســتوى الكلمة المفردة مثل: نعم، بلى، لا، أمّا التنغيم فيُوظّف على مســتوى العبارة أو الجملة»(8).

وتســمّى اللغات المســتعملة للنغمة: "لغات نغمية"، حيث تقوم النغمة فيها بوظيفة تمييزية شأنها في ذلك شأن الفونيم.

3 ــ علاقة التنغيم بالإيقاع والموسيقى:

يحدّد "قاســم بني دومي" طبيعة هذه العلاقة قائلا: «للتنغيم صــلة وثيقة بالإيقاع وموســيقى الكلام وعليه يمكن القول: إنّ التنغيم ظاهرة صــوتية تنتظم التركيب عن طريق إطلاق نغمات موسيقية منتظمة ومتنوعة، في حدث كلامي معيّن؛ وذلك لأداء دلالات معيّنة»(9).

4 ــ بين التنغيم وبين الترقيم:

يقدّم "تمّام حسّان" تفرقة بين التنغيم وبين الترقيم فيقول: «التنغيم في الكلام المنطوق كالترقيم في الكــــلام المكــتوب، غير أنّ التـــــنغيم أوضـــح من الترقــــيم في الـــدلالـــة على المعـــنى الوظيـفي للجـــملـــة، وربّما كان ذلك لأنّ ما يستعمله التنغيم من نغمات أكثر ممّا يسـتعمله الترقيم من علامات كالنقطة والفاصـلة والشـرطة وعلامة الاسـتفهام وعلامة التأثر، وربّما كان ذلك لسبب آخر...»(10).

من خلال هذا الكلام الذي ساقه "تمّام حسّان" يمكن القول بأنّ التنغيم أوســــــع من الترقيم وأشمـــل منه، فهو يتقاطع معه في بعض الجوانب ويتجاوزه في جوانب أخرى؛ ذلك أن عمليات الترقيم في الكتابة إنّما تعتمد أساسا على العلامات السابقة الذكر فقط، في حين يعتمد عليها التنغيم كوسيلة لفهم المعنى المراد، هذا فضلا عمّا يستخدمه من تلونات لفظية وصوتية

وحتى إشارية. قياسا على هذا يمكن القول: **إنّ التنغيم هو ترقيم الفصاحة، أمّا الترقيم فهو تنغيم البلاغة.**

5 ــ علاقة التنغيم بالوقف:

إنّ دور الوقف يكاد ينحصر في إبراز نوع التنغيم من خلال النغمة الأخيرة الموقوف عليها، والتي عادة ما تكون منبورة، لاسيما إذا كانت على مستوى المقاطع المنبورة، والتي لا تتحقق غالبا إلاّ عند الوقف[11].

6 ــ علاقة التنغيم بالترتيل:

تقتضي قراءة القرآن قراءة مرتلة مراعاة قوانين النغم، أو ملامح العلو الموسيقي، والترتيل لا يكون كاملا إلاّ بحفظ هذه الملامح؛ ذلك أنّ علم التجويد لا يختصّ بدراسة الأصوات اللغوية من حيث إتقان مخارجها وإعطائها حقّها ومستحقّها فحسب، إنّما هو أيضا ملامح نغمية وتنغيمية ينبغي صيانتها وحفظها[12]، وهذا ما انتبه إليه الإمام "الزركشي" حيث يقول في "البرهان": «فمن أراد أن يقرأ القرآن بكامل الترتيل فليقرأه على منازله، فإن كان يقرأ تهديدا لَفِظَ به لَفْظَ المتهدّد، وإن كان يقرأ لَفْظَ تعظيم لَفِظَ به على التعظيم»[13]

إذن فثمّة صلة وثيقة بين «تحقيق الصوامت والمصوّتات تحقيقا مجوّدا وتوظيف ملامح العلو الموسيقي»[14] من أجل تحقيق المعنى المراد.

7 ــ علاقة التنغيم بالنبر:

يتقاطع التنغيم مع النبر في أنّ كلاهما يشتركان في خاصية فيزيائية واحدة وهي استفادتهما من الوحدة الصوتية (الصوت)، غير أنّ التنغيم يخالف النبر في الحدود والدلالة، فحدود التنغيم أوسع من حدود النبر؛ ذلك أنّ الأصل في حدود التنغيم هو"الجملة"، يبدأ من أوّلها وينتهي عند آخرها. في حين أنّ النبر قد يكون في كلمة من كلمات الجملة (النبر الجملي)، وقد يكون على مقطع من مقاطع الكلمة، أو صوت من أصواتها (النبر الكلمي).

أمّا فيما يخصّ الدلالة فإنّ دلالة النبر تعود إلى نوعيه؛ فالنبر الجملي تتعلّق دلالته بالمستوى التركيبي (السياق)، أمّا النبر الكلمي فتتعدد دلالاته بتعدد أنواعه، فقد يؤدي وظيفة فونيمية فهو حينها ذو دلالة صرفية أو معجمية، كما قد يؤدي وظيفة تطريزية، فهو لا دلالة له، وإنّما يعدّ حينئذ جزءً من البنية الصوتية للكلمة، وهاتين الدلالتين يؤديهما النبر حينما يكون شديدا (نبر الشدّة)، أمّا نبر الطول وهو النوع الثاني من نبر الكلمة فدلالته إمّا أن تكون انفعالية أو تأكيدية أو تثير الاندهاش، أمّا دلالة التنغيم فهي دلالة عامة على مستوى الجملة وهي: الإخبار، الاستفهام، الاستنكار، التعجب والإقرار...[15].

ثالثا: أنواع التنغيـــــم

اشتهر عند علماء الأصوات ثلاثة أنواع من التنغيم وهي:

1 ـ النغمة الصاعدة: وتعني: «وجود درجة منخفضة في مقطع أو أكثر، تليها درجة أكثر علوًا منها»[16].

ومعنى هذا أنّ هذه النغمة: «تنتهي بدرجة إسماع عالية، ففي حالات الاستفهام والشرط والغضب مثلا تتوتر الحبال الصوتية عند نهاية الجملة، فيكون الصوت حادا»[17].

ومثال النغمة الصـــاعدة قوله تعالى: [**لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ**] المائدة/89، فمن علامات منحـــنى الرفع أو قـــوّة النغمة: القسم، قال "ابن كثير" في تفسير الآية السابـــقة متحـــدثا عن

يمين اللغو: «وأنه قول الرجل في الكلام من غير قصد: لا والله، وبلى والله»[18].

2 - النغمـة الهـابطـة: وتعني «وجود درجـة عـاليـة في مقطع أو أكثر، تليهـا درجـة أكثر انخفاضا»[19].

ومعنى هذا أنّ هذه النغمة: «تنتهي بدرجة إسماع منخفضة، ففي حالات الضعف والعجز والهدوء والحلم أو في الجمل التقريرية عموما، ترتخي الحبال الصوتية في نهاية الجملة، فيكون الصوت ثقيلاً، وهذا ما يفسّر وجود النغم الهابط»[20].

ومن أمثلة النغمة المنخفضـــة الهابطة قوله تعالى: [**فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُــهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ**] المائدة/30، فالمقام هنا مقام إخبار وتقرير.

ويكثر ورود الأولى في جمل الاســـتفهام التي تتطلّب الإجابة بنعم أو بلا، وكذلك الجمل المعلّقة

على الشـــرط، أمّا الأخرى فيكثر دورانهـا في الجمـل التقريريـة والخبريـة، وحتى الجمـل الاستفهامية بالأدوات الخاصة.

كما قد تظهر النغمتان الصـــاعدة والهابطة في جملة واحدة: كجملة الشـــرط بطرفيها؛ فجملة الشـرط تشـتمل على نغمة صـاعدة، لعدم تمام الكلام وجملة الجواب ذات نغمة هابطة لتمام الكلام[21].

3 ـــ النغمة المستوية: وهي عبارة عن «عدد من المقاطع تكون درجاتها متحدة، سواء أكانت منخفضة أم عالـيـة أم متوسـطـة، وعلى ذلـك فالنغـمة المسـتوية تأتي على صـور ثـلاث وهي: نـغـمة مسـتوية منـخفـضة، نغمة مستوية مرتفعة، نغمة مستوية متوسطة»[22].

فواضـــح من خلال هذه الأنواع التنغيمية الثلاثة أنّ العلماء قد اعتمدوا في وضـــعها، على معيار الاتجاه الصوتي منذ بداية الكلام وحتى نهايته. بيد أنّ هناك عدد من الباحثين قد أضافوا نوعين آخرين للتنغيم غير الأنواع الثلاثة المذكورة آنفا وهما:

* **التنغيم الصاعد الهابط:** وذلك بأن تكون: «البداية هابطة يعقبها صعود يليه هبوط في النغمة»[23].

* **التنغيم الهابط الصاعد:** ويتمثّل ذلك في أنّ يبدأ الكلام بـ: «نغمة صاعدة، تليها نغمة هابطة ثمّ نغمة صاعدة»[24].

رابعا: خصائص التنغيم

يتّسم التنغيم بجملة من الخصائص، لابدّ من وجودها جميعا في العبارة المنطوقة؛ وذلك لكون أيّ نطق لا يمكن أن يتمّ بمعزل عن قوّة الصوت أو شدّته أو سرعته، ومن تمّ فهي تتشارك جميعا في أداء وظيفتها، وعلى ذلك يصعب الفصل والتمييز فيما بينها، وهذه المميّزات هي[25]:

1 ـ النغمة: ونعني بها حركة النغمة في العبارة التي يكوّنها ارتفاع جرس الصوت الأساسي أو انخفاضه، فالنغمة مكوّن نغمي.

2 ـ الشّدة: وهي المكوّن الإيقاعي الحركي.

3 ـ الطول والسرعة: وهو المكوّن الزمني، أمّا المكاني فهو موقع النغمة بين النغمات.

4 ـ الوقف: أي القطع والنطق بأطوال مختلفة.

5 ـ الحدّة: أي تلونات الكلام الشعورية والانفعالية.

6 ـ الاعتماد على المنطوق دون المكتوب، وإن كان اللغويون قد وضعوا علامات للترقيم تعبّر عن تلك النغمات مثل النقطة، الفاصلة، علامة الاستفهام، التعجب،...

7 ـ التنغيم ظاهرة صوتية تشترك فيها معظم اللغات لكونها تؤثر في تغير الدلالة، دون أن تتغيّر المفردات وهنا تكمن أهمية التنغيم.

خامسا: أهمّية التنغيم

يعرّف "الجاحظ" الصوت مبيّنا أهمّية التنغيم قائلا: «والصوت هو آلة البيان والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منثورا إلّا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاما إلّا بالتقطيع والتأليف، وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان، مع الذي يكون مع الإشارة من الدَّلِّ والشّكل والتَّفَتُّلِ والتَّثَنّي واستدعاء الشهوة وغير ذلك من الأمور»[26].

وإشارة "الجاحظ" في هذا القول لدليل على أهمّية التنغيم في السياقات التنظيمية للمتكلّم، وهي بعد ذلك التفاتة واضحة المعالم إلى الجرس الصوتي الذي يرافق الحركة أثناء تأدية الفعل الكلامي.

سادسا: وظائف التنغيم

يؤدّي التنغيم على مستوى اللغة جملة من الوظائف اللغوية، ولعلّ أبرزها ما يلي:

1 ــــ الوظيفة الصوتية: تتجسد هذه الوظيفة في التنغيم في ما له سمة صوتية موسيقية، تشبه الترجيع اللحني، فمن المعلوم أنّ التنغيم يقوم على التنويعات الموسيقية في نسق الكلام، ولا يبعد هنا الأثر الموسيقي الجمالي لهذه التنويعات، ممّا يملك على السامع أسباب التواصل والارتياح(27).

2 ــ الوظيفة الصرفية: لقوالب الألفاظ وصيغ الكلمات في العربية أوزانا موسيقية، وكلّ بناء من هذه الأبنية ذو نغمة موسيقية ثابتة، فالفرق بين الكلمة ومشتقاتها نحو: الفعل (يحمد)، اسم الفاعل (حامد)، اسم المفعول (محمود)، الصفة المشبهة (حميد)،...وما يتفرع عنها، هو فرق بين الأفعال والأسماء والمصادر والصفات وإفراد ومجموع، وهو كلّه قائم على الفرق بين وزن وآخر، وبين قياس صوتي وآخر مثله، يتوقف على الحركات والنبرات؛ أي اختلاف النغمة الموسيقية، فلكلّ وزن من الأوزان الصرفية نغمة موسيقية محدّدة، تختلف باختلاف الصيغة ودلالتها. فلفظة "يشاقق" مثلا وردت في القرآن الكريم بالإدغام وبدونه، ففي سورة الحشر يقول المولى عزّ وجلّ [**وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ**]الحشر/4 بالإدغام، فالتنغيم الصوتي في حرف "القاف" ــــ حالة الإدغام ــــ وقبله المدّ يعبّر عن صعوبة الحدث وعاقبته الوخيمة، لأنه تعامل مع الخالق، وبغير الإدغام مع لفظة "الرسول" في قوله تعالى: [**وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ**]النساء/115، فيعبّر التنغيم عن كون: الشقاق مع المخلوق غيره مع الخالق، فهو أسهل قياسا بالأوّل، كما يمكن للنغمة كذلك أن تتدخل في تحديد عدد وجنس ونوع الصيغة الصرفية، وهذا يدل دلالة واضحة على أنّ للتنغيم وظائف صرفية دلالية مهمّة(28).

3 ـــــــ الوظيفة النحوية: تعدّ هذه الوظيفة عاملا فاعلا في التمييز بين أنماط التراكيب والتفريق بين أجناسها النحوية، فالتنغيم بأنماطه المنوعة عامل أساسي في بيان أن المنطوق مكتمل في مبناه ومعناه أم غير مكتمل. يظهر ذلك بوضوح في الجمل الشرطية، كما في قولنا مثلا: "إنْ تأت، تجد ما يسرّك."، حيث تنتهي جملة الشرط بنغمة صاعدة دليلا على عدم تمام الكلام، فتمامه يحصل بجواب الشرط الذي ينتهي بنغمة هابطة، دليلا على الاكتمال في المبنى والمعنى معا. والتنغيم هنا يؤدي دورا يشبه دور علامات الترقيم في الكتابة، كما هو واضح من خلال المثال السابق؛ فوجود الفاصلة في الجزء الأول من العبارة السابقة دليل على استمرارية المنطوق، كما تعني ارتباط هذا الجزء من المنطوق وتعلّقه بما يكمّله، فكانت النقطة في النهاية دليلا على الاكتمال. ومن أهمّ الوظائف الأخرى التي يؤديها التنغيم: دوره في تصنيف الجمل إلى أنماطها المختلفة من تقريرية واستفهامية وتعجّبية، فالجمل التقريرية لها نمط خاص من التنغيم في نهاياتها: يتمثّل هذا النمط في النغمة الهابطة التي تدلّ على تمام المنطوق واكتماله، في حين أنّ الجملة الاستفهامية ---- وبخاصة تلك التي تستوجب الإجابة بلا

أو نعم ـــــ تنتهي بنغمة صاعدة كما هو الحال في الجمل الاستفهامية التي تستخـــدم فيها عـادة أدوات الاستـفهام العامـة، وهي: الهمـزة وهل، كقولك: أَفَهِمْتَ؟ فيـكون الجـواب: لا أو نعم، حيث تنتهي جملة الاســتفهام بنغمة صــاعدة، دليلا على أنّ الكلام لم يتم (في موقفه المعين)، وتمامه بالإجابة (بصورتيها المذكورتين) التي تنتهي بنغمة هابطة[29].

4 ــ **الوظيفة الدلالية السياقية:** حيث تنبئ اختلاف النغمات وفقا لاختلاف المواقف الاجتماعية عن وجهــات النظـر الشخـصية من رضا وقبول وزجر وتهكّم وغضب وتعـــجّب ودهشة ودعاء... الـــخ، حيث يقوم التنغيم بأداء هذه المعاني بمعونة السياق العام المتعلّق بالظروف والمناسبات التي يلقى فيها الكلام، وبهذا يكون عنصر التنغيم ركنا أساســيا في الأداء، يتحكّم على نحـــو واضح في تحديد المعنى وتوجيـــــهه، اعتمادا على كيفــــية نطــــــق الجمــــلة وتنغيمها؛ فتغيّر النغمة قد يتبعه تغير في الدلالة[30].

ومن خلال هذه الوظيفة يمكن القول: إنّ التنغيم له أهمية كبيرة في تحديد معنى الجمل وتوجيهه، فهو بهذا من مصــطلحات علم الأصــوات الوظيفي، تكمن مهمّته في «حلّ الكثير من الإ شكالات الدلالية اللغوية، التي تتـ صل بالأ صوات و سياقات الكلام التنظيمية، إذ تتحدّد الـ صور النطقية بموجب أنماطه، من صعود وهبوط وا ستقرار»[31]، واللغة العربية واحدة من اللغات التي يعمل فيها التنغيم عمله، فهي لغة تنغيمية؛ أي أنّ التنغـيم يؤدي وظيفته فيها على مستـوى الكلمـــة والجملـــة مفرقا بذلك بين أســـاليبها الكلامـــية، ولعلّ ما يفسّر أهم وظائف النبر بكونها الوظيفة الصرفية اهتمامه بالكلمات دون الجمل، في حين أنّ أهمّ وظيفة يؤديها التنغيم هي الوظيفة التركيبية والنحوية لعنايته أكثر بالجمل والعبارات اللغوية.

فضـــلا عن هـذه الوظـائف الأربعـة التي يؤديهـا التنغيم هنـاك الوظيفـة التعبيريـة أو الانفعالية، فهو يعبّر عن الانفعالات والمشـاعر؛ ذلك أنّ تنغيم الرضـى مثلا غير تنغيم الغضـب، وتنغيم الحزن غير تنغيم الفرح وهكذا دواليك، ويمكن أن نجمع كلّ وظائف التنغيم في وظيفة رئيســية وهي **الوظيفة التمييزية،** ففي اللغة العربية مثلا هناك الكثير من الجمل التي يختلف معناها باختلاف الصــورة التنغيمية التي تلفظ بها، وذلك عن طريق الارتفاع والانخفاض في درجة الصوت، مع ما يحيط به من مقتضيات السياق وملابسات الموقف.

بعد هذا العرض الموجز للتنغيم ووظائفه أمكن للسـائل أن يتسـاءل فيقول: هل التنغيم "فونيم" في اللغة العربية أم أنّه مجرد تلوّن صوتي تنتج عنه ملاحة في الكلام؟.

سابعا: فونيمية التنغيم في النظام اللغوي العربي

يرى بعض الباحثين أنّ التنغيم في العربية غير ذي دلالة، ويرجع ذلك إلى أمرين: الأوّل منهما: «أنّ العربية تستغني عنه بالأدوات وعلامات الإعراب، والآخر لأنّ اللغويين القدامى لم يسجّلوا لنا شيئا عنه»[32]. وإذا كان الأمر الأول مقبولا لحدّ ما فإنّ الأمر الآخر لا يمكن التسليم به، هذا من جهة، وتعميم هذا الحكم على كلّ علماء الأصوات القدامى من جهة أخرى، فها هو "ابن جني" مثلا، وهو من قدامى الصوتيين نجده قد عقد في كتابه "الخصائص" بابا تحت عنوان "في نقض الأوضاع إذا ضامّها طارئ عليها"، وهذا يؤكّد بأنّ "ابن جني" كان على وعي تام بظاهرة التنغيم في العربية، ودورها الوظيفي والمتمثّل في تحديد معاني ودلالات الكلام، وفي هذا الصدد يقول مؤكدا على وجود هذه الظاهرة في اللغة العربية: «ومن ذلك لفظ الاستفهام إذا ضامّه معنى التعجّب استحال خبرا. وذلك قولك: *مَرَرْتُ بِرَجُلٍ أيَّ رَجُلٍ!* فأنت الآن مخبر بتناهي الرجل في الفضل، ولست مستفهما(...)، ومن ذلك لفظ الواجب، إذا لحقته همزة التقرير عاد نفيا، وإذا لحقت لفظ النفي عاد إيجابا وذلك كقول الله سبحانه: [**أأنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ**][*] سورة المائدة/116، أي ما قلت لهم، وقوله: [**ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ**] سورة يونس/59 أي لم يأذن لكم، وأمّا دخولها على النفي كقوله عزّ وجلّ: [**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**] سورة الأعراف/172 أي أنا كذلك»[33].

ثامنا: الدراسة الإيقاعية للتنغيم في سورة المائدة: بين الأداء والدلالة

تشكّل العلاقة بين الأصوات ودلالاتها في العربية ظاهرة لا يمكن إنكارها، وهي تمتدّ لتشمل كمّا كبيرا من ألفاظ اللغة العربية وتراكيبها، بل إنّ العربية أكثر اللغات احتواء لمظاهر **الدلالة الصوتية**، سواء أكان ذلك على مستوى اللفظ أم السياق أم على مستوى الأداء، أم على مستوى الصيغ والأوزان؛ وزيادة المعنى ناتج في أساسه عن زيادة في المبنى.

يعدّ النص القرآني على هذا الأساس من أغنى النصوص وأثراها من الناحية الصوتية، ولذا فإنّ الصوت في القرآن له دورا مهمّا وأساسيا في جانبه الجمالي المتمثّل في الإيقاع المتميّز، والدلالي المتمثّل في ما يفيد من معاني وأغراض، وأهمّية الصوت تكمن في تكوين الإيقاع المناسب للمعنى والغرض، ونوع التأثير المراد إثارته في نفوس السامعين.

إنّ الأداء القرآني المتقن وفق أحكام التجويد، ووفق مظاهر التعبير الصوتي تُظْهِر لنا الدلالات الحقيقية للنصّ القرآني بآفاقها الواسعة، ومن بين هذه التنوعات الصوتية التي لها دورا كبيرا في ربط الصوت بالمعنى: **ظاهرة التنغيم.**

وقبل الخوض في الدراسة الصوتية الإيقاعية الخاصة بهذه الظاهرة، لا بدّ من الإشارة أولا إلى أنّ طبيعة النص القرآني من الناحية الأدائية أو التلاوة يختلف عن النصوص الأخرى نثرها وشعرها، فالذي يريد أن يتلو القرآن، عليه أن يكون ملمّا بقواعد التلاوة تعلّما وأداءً لكي يقرأه قراءة صحيحة، وقبل أن يجتهد العلماء في وضع قواعد التلاوة الصحيحة، كان النّاس يقرؤون

القرآن مجـوّدا على السليـــقة، ولكن حينـما اختـلط العـرب بالعجم في عصـــر الفـــتوحات الإسلامية ومـــا بــــــعدها، انتشر اللحن في التلاوة فاجتهد القرّاء والمجوّدون ووضعوا قواعد وأحكام التلاوة النموذجية للقرآن، وسـمّوه بفنّ: الترتيل أو علم التجويد الذي يقتضـي أن يعطي القارئ للحرف حقّه ومستحقّه من المخارج والصفات.

وحيث أنّ المقام لا يتّسع لبحث كلّ آيات سورة المائدة رغبة في إعطاء صورة واضحة عن فكرة العلاقة بين الأداء الصوتي لظاهرة التنغيم ودلالته على مستوى هذه السورة الكريمة، من خلال ما يخلّفه الإيقاع الملازم له من تلونات صـوتية تتراوح بين مسـتويات نغمية متباينة من شـأنها الوقوف على المعنى المقصـود، رأيت أن أقصـر البحث على بعض آيات سـورة المائدة، متبوعة بدراسة دلالية مستنبطة من خلال الأثر الإيقاعي للتنغيم على مستواها.

1 ــ الآية 43:

قال الله تعالى: [***وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ***].

للاستفـــهـــام معاني متــعدّدة وأغــراض كــثيــرة تســـتفاد من خـــلال سيـــاق الكــــلام وحـــال المـــخـــاطــب أو المتكلّم، والظروف المحيطة بهما. فإذا كان الغرض من استعمال أداة الاستفهام: السؤال بهدف الوصول إلى إجابة معينة، فإنّ أداة الاستفهام هنا تؤدّي معناها الأصـلي، أمّا إذا كان السـؤال لأداء غرض آخر غير الاسـتجواب، فإنّ الاسـتفهام في هذه الحالة يخرج عن معناه الأصــلي إلى معانٍ أخرى، تماما كما هو الحال مع لفظة "كيف" في هذه الآية، حيث خرجت من معناها الأصلي وهو الاستفهام إلى معنى التعجّب والاستـــــــــغراب؛ فعـــجيب حـال هؤلاء اليهود الذين تركوا حكـم التـــوراة التي يدّعـــون الإيمـــان بها وهم يــــــدركونه، وطالبوا من الرسول (ص) أن يحكم لهم في مسألتهم، ورضاهم بحكمه إذا وافق أهواءهم، وتركهم إياه إذا جاء على غير ما يريدون، وما ذلك إلّا إثبات وتأكيد على أنّهم ليســوا مؤمنين بالتوراة إيمانا صادقا صحيحا «إذ المؤمن بشرع لا يرغب عنه إلى غيره، إلّا إذا آمن بأنّ ما رغب إليه شرعٌ من الله أيضا أيّد به الأوّل أو نسخه لحكمة اقتضت ذلك»[34].

والاسـتفهام هنا الذي جاء في صـيغة التعجّب لا يهدف إلى الاسـتجواب أو الاسـتخبار، ومع ذلك فالمناســب لهذا المعنى أن تكون نغمة الأداء مرتفعة صــاعدة على طول مدى هذه الآية، لتؤدّي إلى إيصال معنى الاستغراب من حال هؤلاء اليهود.

2 ــ الآية 64

قال الله عزّ و جلّ: [***وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُـوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَـاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ***].

أمّا فيما يتعلّق بالتنغيم على مســتوى هذه الآية فإنّه يمكن تقســيمها إلى مجموعتين مقطعيتين

نغميتين مختلفتين **باختلاف القراءة**، فقد يحدث وأن تـ سمع بعض القراء يقرؤون قوله تعالى: [**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ**] بتنغيم صـــا عد مرتفع؛ فهؤلاء يغـلب على قراءتهم نوع من الانفعال يدلّ على الاســتنكار الشـديد لهذه الادّعاءات والافتراءات الباطلة على الله تعالى. بل إنّ هذا الانفعال يمتدّ ليبلغ مداه من الإعلان والتفخيـــم عند قـــراءته الـــردّ القـــرآني على هذه الادّعـــاءات، يـقـــول الله تعـــالى: [**غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ**] إلى قـــوله: [**طُغْيَانًا وَكُفْرًا**] ويتبع منحنى الرفع هذا نغمة هابطة فيها تقرير وإخبار بجزاء أعداء الله المفترين عليه، قال تعالى: [**وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ**] إلى قـــوله تعـــالى: [**وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**].

فبناء على هذا الكلام يمكن القول: إنّ هذه الآية تبتدئ بنغمة صـــاعدة تتبعها نغمة أخرى هابطة. وقد يحدث في المقابل أن تسمع بعض مرتلي القرآن الكريم يقرأ قوله تعالى: [**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ**] بنغمة هابطة؛ وخفض الصـــوت في هذه المواطن وغيرها من المواطن المشابهة، له دلالة مركزية ومحورية مفادها: أنّ الخفـــــض هنا يمثّل رســـــــالة صوتية للمستـــمع مـــؤدّاها أنّ هذا الكـــلام افـــتـــراء على المولى عـــزّ وجـــلّ، وليس له أساسا من الصّـــحة. يقول "أحمد البايبي" موضّـــحا هذه الدلالة: «إنّ هذه الآيات فيها جرأة على الله وتقَوُّلٌ عليه، وكفر وتحدٍّ أو افتراء عليه، لذلك فهي تُؤَدَّى على مستوى طبقات الصوت بصوت خفيض تسفيها لقائلها، وتعظيما لله واستحياء منه»[35].

هذا ويستمرّ منحنى الخفض إلى نهاية الآية لِـــــما فيها من إخبار وتقرير لمصير هؤلاء المدّعين كما أشرنا. ممّا يعني أنّ الآية64 تُؤَدّى من هذا المنظور بنغمة واحدة على طول مداها، وهي النغمة الهابطة.

3 ــ الآية 73

قال عزّ وجلّ: [**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**].

يمكن تقســـيم هذه الآية إلى مجموعات مقطعية نغمية: نغمة هابطة في قوله تعالى: [**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ**]، تليها نغمة صـــاعدة تتجسّـــد في قوله تعالى: [**وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ**]، بعدها نغمة هابطة تتجلّى من خلال قوله تعالى: [**وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّـــنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**]. فأمّا النغمة الأولى، أي النغمة الهابطة؛ فلأنّ المقام هنا مقام افتراء وادّعاء باطل وكاذب، تُتلى هذه المجموعة المقطعية بصـــوت منخفض تســـفيها لقائلها، وتقديســـا للمولى عزّ وجلّ. أمّا المجموعة المقطعية الثانية فتُؤدّى في العموم بنغمة عالية ســـريعة، فأنت حينما تســـتمع لأداء هذه الآية القرآنية، والمتمثّلة في الردّ الربّاني على افتراءات المسيحين تلمس فيها نوعا من الانفعال الذي يغلب عليه دلالة الاستنكار الشديد لهذه

الادّعاءات الزائفة، وهذه هي **الوظيفة التعبيرية** للتنغيم، والتي يطلق عليها القراء تسمية: المدّ المعنوي الذي يكون قصد المبالغة في النفي والتعظيم «فمدّ الصوت إذا وارد للتعبير عن المبالغة في نفي الألوهية عن غير الله»(36).

وتُختمُ الآية بنغمة هابطة على الرغم ما فيها من تهديد ووعيد، إلّا أنها جاءت في قالب إخباري تقريري.

4 ـــ الآية 76

قال الله تعالى: [**قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**].

إنّ ما يميّز الاستفهام بأداتيه "الهمزة وهل" من الناحية الصوتية هو منحنى الرفع سواءً أكان الغرض منهما: السؤال أم خرج الغرض إلى معانٍ أخرى ثانوية. وعلى هذا الأساس فإنّ اتجاه المنحنى النغمي في هذه الآية هو اتجاه تنازلي، يبتدئ بنغمة صاعدة يجسّدها هنا الاستفهام، تليها نغمة هابطة يمثّلها الإخبار والتقرير؛ فأمّا النغمة الصاعدة فنجدها في قوله تعالى: [**قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا**]، وهمزة الاستفهام هنا ليست بغرض الا ستجواب بقدر ما هي ا ستفهام ا ستنكاري، لأولئك الن صارى وأمثالهم ممّن عبدوا غير الله ما لا يقدر على إلحاق ضرر عليهم، ولا إيجاد نفع لهم، وفي هذا تقبيح لسوء فعلهم، وتعجب منهم وذمّ لهم على اقترافهم للمنكرات وإصرارهم عليها؛ فالعاجز عن الضّرر والنفع كيف يعقل أن يكون إلها؟! فكأنّ تقدير المعنى: عجبًا منكم على أيّ حال يقع منكم الكفر بالله مع الدلالة الظاهرة على قدرته، والمعجزات القاهرة على صدق وحدانيته، وقيام الحجج الباهرة على وجوب طاعته، وشكر نعمته وعبادته وحده لا شريك له، أمّا النغمة الهابطة فتتجلي واضحة في مقام الإخبار والتقرير عند قوله تعالى: [**وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**].

5 ـــ الآية 91

قال الله عزّ وجلّ في محكم تنزيله: [**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ**].

اشتملت الآية على نغمتين مختلفتين الأولى: هابطة تبتدئ من قوله تعالى: [**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ**] إلى غاية قوله: [**وَعَنِ الصَّلَاةِ**]، وفيها إخبار عن حال شاربي الخمر ولاعبي القمار، تليها نغمة صاعدة في قوله تعالى: [**فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ**]، حيث تؤدّى هذه المقاطع بتنغيم عال وسريع.

إنّ التنغيم قد يكون في بعض النصوص أهمّ من وجود الأداة، لأنّ هناك العديد من النماذج التي اشتملت على أدوات الاستفهام مثلا، وهي في الوقت نفسه لم تحكم على تلك النصوص بأنّها استفهامية، فحرف الاستفهام (هل) مثلا في هذه الآية لا يشير إلى الاستفهام بل هو هنا يفيد معنى الأمر(**)، يقول صاحب "أيسر التفاسير" في

تــــفــسير قــولـــه تعـــالى: [**فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ**]: «أي انــتـــهوا، والاستفهام للأمر لا للاستخبار»(37).

إذن فدلالة الأمرية هنا واضـحة وجليّة؛ فنغمة السـؤال الصـاعدة تدعو السـامع بصـوت ممدود ومرتفع إلى الإذعان والتسـليم والانتهاء عن شـرب الخمر وفعل القمار، امتثالا لأوامره عزّ وجلّ والتقدير(أسـلموا وانتهوا)، وهذا السـياق يقتضـي إحضـار معنى الوعيد والتهديد والترهيب، لأنّ هذا الغرض يتطلّب إظهار الشـدّة والحزم والجدّ، وهذا ما يتلاءم مع النغمة المرتفعة، يقول الشـيخ "محمّد الصـابوني" في مقام الحديث عن قوله تعالى: [**فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ**]: «إيذانا بأنّ الأمر في الزجر والتحذير قد بلغ الغاية القصوى»(38).

ويمكن إيضـــاح هذا المعنى أكثر من خلال الحديث الذي ورد في "ســنن الترمذي"، حيث رُوِي عن "عمر بن الخطـــاب" أنّه قال: «اللهـمّ بيّن لنا في الخمـــر بيان شــفاءٍ، فــنــزلت التي في الـــبقرة: [**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ**]، فَــدُعِيَ عُمَـــرُ فَقُـــرِئَتْ عـــليه، فـــقال: اللهـمّ بيّن لـنا في الخـــمر بيان شفـــاءٍ، فنزلت التي في النساء: [**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى**]، فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عليه، ثمّ قال: اللهمّ بيّن لنا في الخمر بيان شـفاءٍ، فنزلت التي في المائدة: [**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّـيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَـاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِـرِ**] إلى قولـه: [**فَهَـلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ**] فَـدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَـتْ عليـه، فقـال: انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا»(39).

6 ــ الآية112

يقول الله تعالى: [**إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَـى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْـتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**].

يمكن تقســيم هذه الآية إلى ثلاث مجموعات مقطعية بالنظر إليها من زاوية أدائها النغمي: نغمة هابطة تتجلّى من خلال قوله تعالى: [**إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَــى ابْنَ مَرْيَمَ**]، تليها نغمة صاعدة تتجسّد في قوله تعالى: [**هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ**]، تتبعها نغمة هابطة أخرى في قوله عزّ وجلّ: [**قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**]؛ فالنغمة الهابطة وردت في مقام الإخبار والتقرير، في حين جاءت النغمة الصــاعدة في ســياق الاســتفهام؛ فأمّا الاســتفهام هنا: فهو اســتفهام حقيقي بالأداة "هل"؛ أي أنّه لم يخرج إلى معاني أخرى كما رأينا في السابق، وأمّا السؤال فهو سؤال "الحواريين": "عيسى بن مريم" والذين اتخذوه وسيطا بينهم وبين الله يطلب منه ـــ سبحانه ـــ ما طلبوه منه. قال تعالى: [**قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّـمَاءِ**] المائدة/114، وهو ســؤال لأجل اطمئنان القلب بالإيمان العيان لا من أجل الشـكّ في قدرة الله على ذلك، ومثاله ســؤال "إبراهيم" عليه الســلام ربّه ورغبته في رؤية كيفية إحياء الموتى كي يطمئنّ قلبه بإيمان الشــهادة والمعاينة، مع إقراره بإيمانه بذلك الغيب.

الهوامش والإحالات:

[1] – أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريّا الرّازي: معجم مقاييس اللغة، ج2، تح: إبراهيم شمس الدّين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1429هـ/2008م، مادة نَغَمَ.

[2] – أبو نصر محمد بن محمد بن طرفان الفارابي: الموسيقى الكبير، تح: غطّاس عبد الملك خشبة، ومحمود محمد الحنفي، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، دط، دس، ص162.

[3] – شاهر الحسن: علم الدلالة السمانتيكية والبراجماتية في اللغة العربية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1422هـ/2001م، ص130.

[4] – مصطفى حركات: الصوتيات والفونولوجيا، دار الآفاق، الجزائر العاصمة، دط، دس، ص37.

[5] – محمّد إسحاق العناني: مدخل إلى الصوتيات، دار وائل للنشر، عمان، الأردن، ط1، 1429هـ/2008م، ص94.

[6] – غانم قدوري الحمد: المدخل إلى علم أصوات العربية، دار عمار للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 1425هـ/2004م، ص243.

[7] – نور الهدى لوشن: مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، دط، 2006م، ص138.

[8] – المرجع نفسه، ص ن.

[9] – خالد قاسم بني دومي: دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، وجدارا للكتاب العالمي، عمّان، الأردن، ط1، 1427هـ/2006م، ص149.

[10] – تمّام حسّان: اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط3، 1418هـ/1998م، ص226.

[11] – آمنة شنتوف: الظواهر الصوتية في قراءة حمزة الزّيات ـ دراسة وصفية وظيفية ـ، إشراف: خير الدّين سيّب، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علم اللغة الحديث، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، السنة الجامعية: 1430هـ ـ 1431هـ/2009م ـ 2010م، ص161.

[12] – أحمد البايبي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية دراسة لسانية في الصواتة الإيقاعية، ج1، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 1433هـ/2012م، ص187.

[13] – بدر الدّين محمّد عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج1، تح: أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر، دط، دس، ص450.

[14] – أحمد البايبي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية دراسة لسانية في الصواتة الإيقاعية، ج1، ص187.

[15] – ينظر: خالد عبد الحليم العبسي: النبر في العربية (مناقشة للمفاهيم النظرية ودراسة أكوستيكية في القرآن)، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 1432هـ/2011م، ص85.

[16] – غانم قدوري الحمد: المدخل إلى علم أصوات العربية، ص243.

[17] – أحمد البايبي: المرجع السابق، ج1، ص165.

[18] – أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدّمشقي: تفسير القرآن العظيم، مج2، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ومكتبة دار الزيّان، الجزائر، ط1، 1423هـ/2002م، ص996.

[19] – غانم قدوري الحمد: المدخل إلى علم أصوات العربية، ص243.

[20] – أحمد البايبي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية دراسة لسانية في الصواتة الإيقاعية، ج1، ص 165.

[21] – ينظر: حسام البهنساوي: علم الأصوات، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1، 1425هـ/2004م، ص ص167، 168.

[22] – . المرجع نفسه، ص165.

[23] – عبد الفتّاح عبد العليم البركاوي: ترتيل القرآن الكريم في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، الجريسي للطباعة والتصوير، القاهرة، مصر، ط1، 1425هـ/2004م، ص197.

[24] – المرجع نفسه، ص198.

[25] – سهل ليلى: التنغيم وأثره في اختلاف المعنى ودلالة السياق، مجلّة كلّية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة (الجزائر)، العدد السابع، جوان 2010م، ص ص7، 8.

[26] – أبو عثمان بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، مج1، ج1، تح: موفّق شهاب الدّين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1424هـ/2003م، ص63.

[27] – محمد جعفر: المستوى الصوتي في قراءات سورة "عبس المباركة" مقاربة دلالية على ضوء النبر والتنغيم، مجلّة مركز دراسات الأوفة، جامعة القادسية، العدد 6، 1428هـ/2007م، ص37.

[28] – ينظر: كوليزار كاكل عزيز: القرينة في اللغة العربية، دار دجلة ناشرون وموزعون، عمان، الأردن، ط1، 1430هـ/2009م، ص ص61، 64.

[29] – ينظر: كمال بشر: فن الكلام، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، دط، 2003م، ص ص 268، 269.

[30] – مزاحم مطر حسن: أثر التنغيم في توجيه الأغراض البلاغية لعلم المعاني (الاستفهام أنموذجا)، مج 6، مجلّة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، جامعة القادسية، العددان (3 ـ 4)، 1428هـ/2007م، ص40.

[31] – تحسين عبد الرضا الوزّان: الصوت والمعنى في الدرس اللغوي عند العرب في ضوء علم اللغة الحديث، دار دجلة ناشرون وموزّعون، عمّان، الأردن، ط1، 1432هـ/2011م، ص399.

[32] – صالح سليم عبد القادر الفاخرى: الدلالة الصوتية في اللغة العربية، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، مصر، دط، 1428هـ/2007م، ص199.

*– والنغمة في قوله تعالى: ﴿**أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ**﴾ نغمة صاعدة؛ لأنّ المقام مقام استفهام (الاستفهام بالهمزة)، غير أنّ الاستفهام هنا خرج عن معناه الأصلي، فهو في هذه الآية ليس بغرض الاستجواب كما هو ظاهر الآية =

= بقدر ما هو تحقيقا؛ أي أنّ المتكلّم هنا وهو المولى عزّ وجلّ أراد حمل المخاطب (عيسى بن مريم) على الاعتراف بمضمون الكلام (الخطاب) الموجّه إليه...

---

33 – أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص، مج2، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1424هـ/ 2003م، ص470.

34 – أحمد مصطفى المراغي: تفسير المراغي، مج2، ج6، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ/2001م، ص301.

35 – أحمد البايبي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية دراسة لسانية في الصواتة الإيقاعية، ج1، ص297.

36 – أحمد البايبي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية دراسة لسانية في الصواتة الإيقاعية، ج1، ص258.

– الأمر: طلب حصول الفعل من المخاطب على وجه الاستعلاء، وقد يخرج عن هذا المعنى الحقيقي إلى معاني أخرى كالتهديد. **صالح سليم عبد القادر الفاخري: الدلالة الصوتية في اللغة العربية، ص201.

37 – أبو ذرّ القَلَمُوني: كلمات القرآن الكريم في كتاب أيسر التفاسير للجزائري، دار ابن حزم، القاهرة، مصر، ط1، 1430هـ/2009م، ص169.

38 – محمّد علي الصابوني: صفوة التفاسير، مج1، ج7، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، ط4، 1402هـ/ 1981م، ص366.

39 – أبو عيسى محمّد بن عيسى بن سورة الترمذي: سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله(ص)، رقم الحديث: 3060، تح: صدفي جميل العطّار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ/2002م، ص868.

رأي قطرب في الحركات وظاهرة الإعراب في آراء اللغويين

أ.د. زيد خليل القرالة
قسم اللغة و الأدب العربي جامعة آل البيت الأردن

ملخص المقال:

أخذت الحركات عامة وظاهرة الإعراب بخاصة في اللغة العربية اهتماماً كبيراً في الدراسات اللغوية على اختلاف أبوابها: النحوية، والصرفية، والمعجمية، والصوتية؛ فالحركات موضع اهتمام من حيث هي حركات بناء تمنع التقاء السواكن، ومن حيث هي حركات إعرابية تلازم أواخر الكلم تبعاً لموقع الكلمة.

لقد وجدت هذه الظاهرة اللغوية الاهتمام من منطلق قيمتها الوظيفية في بنية الكلمة: نحوياً، وصرفياً، ومعجمياً، وصوتياً مما جعل حضور الحركات والحديث عنها يمثل ركناً رئيساً في الدراسات اللغوية، ومهما وقع من خلافات بين العلماء إلا أنها خلافات في الفروع وليست في الأصول؛ فقد يختلف في بناء كلمة، أو جواز حركتها على غير وجه، وقد يقع اختلاف الأبنية باختلاف اللهجات لكنه اختلاف لا ينطوي على طعن في أصول الآراء اللغوية أو ردّها.

أما المنطلق الثاني الذي أخذت الحركات قيمتها منه فهو الخلاف في الأصول والطعن فيها؛ وهذا يتمثل في رأي قطرب (محمد بن المستنير ت206هـ) الذي يرى أن الكلام لم يُعرب للدلالة على المعاني، بل جيء بالحركات للفصل بين الحروف والكلمات؛ لأن الفصل بين الكلمات بالوقف والسكون قد يؤدي إلى البطء في درج الكلام، ومع أن صاحب هذا الرأي قد تتلمذ على سيبويه إلا أنه قد خرج على المألوف، وخالف النحاة ورأيهم السائد في الحركات والإعراب، وقد شكل هذا الخروج حركة حجاج لغوي قديماً وحديثاً، وقد وقفت في هذه الدراسة على آراء العلماء ممن تحدثوا في رأي قطرب في الحركات وظاهرة الإعراب محاولاً رصد الآراء، وبيان مضامينها، وتوجيهها في ضوء الدرس اللغوي الحديث، والمعطيات، والأدوات المتجددة ما أمكن جاعلاً اهتمامي يتمحور حول تطور النظرة المعاصرة لتلك القضية بوصفها موروثاً لغوياً ما زال يمثل إشكالية.

Qutrub's View on Vowels and Their Inflectional Significance
In Conversation/Debate with Other Scholars

Muhammad Ibn al-Mustatir (d. 206 AH) proposed the view that vowels were not introduced into the Arabic language for purposes of inflection or to signify meanings but, rather, in order to separate consonants. This view opened the door wide to discussion and debate, giving rise to a variety of opinions ranging from agreement to objection.

In the present study I have examined and interacted with the views of both ancient and modern scholars, though more lengthy attention is given to the views of modern scholars than those of early thinkers. This overview, which summarizes each scholar's point of view, is followed by a presentation of my own view on the issue at hand, which is indebted in particular to the views of modern scholars.

فحوى رأي قطرب وصداه عند القدماء:

تمثل الحركات وظاهرة الإعراب في العربية والدرس اللغوي قضية جدلية بين علماء اللغة منذ القدم، وقد كانت هذه القضية مدار حوار وجدل حيناً، ونمطاً من المسكوت عنه حيناً آخر، وقد وجدت هذه القضية الاهتمام منذ البدايات في الدراسات اللغوية.

لقد كان دور الحركات في الإعراب، ودلالاتها على المعنى يعدّ أمراً من المسلمات التي لا يداخلها الشك، وقد تداولها علماء اللغة على هذا الفهم إلى أن ظهر من يثير الشك في هذا الفهم؛ فقد ظهر رأي قطرب (محمد بن المستنير ت 206هـ) الذي أثار الجدل قديماً وحديثاً.

لقد جاء في الإيضاح للزجاجي قوله: "اتفق النحاة على أن حركات الإعراب تنبئ عن المعاني، وتدل عليها ليتوسعوا في كلامهم ويقدموا الفاعل إن أرادوا، أو المفعول وتكون الحركات دالة عليه، إلا أنّ قطرباً قد عاب عليهم هذا الاعتلال وقال: لم يعُرب الكلام للدلالة على المعاني والفرق بين بعضها بعضا، لأننا نجد في كلامهم أسماء متفقة في الإعراب مختلفة المعاني، وأسماء مختلفة الإعراب متفقة المعاني... فلو كان الإعراب إنما دخل الكلام للفرق بين المعاني لوجب أن يكون لكل معنى إعراب يدلّ عليه لا يزول إلا بزواله. قال قطرب: "وإنما أعربت العرب كلامها لأنّ الاسم في حال الوقوف يلزمه السكون للوقوف، فلو جعلوا وصله بالسكون أيضاً لكان يلزمه الإسكان في الوقف والوصل، وكانوا يبطئون عند الإدراج فلما وصلوا وأمكنهم التحريك، جعلوا التحريك معاقباً للإسكان، ليعتدل الكلام... قيل له: فهلا لزموا حركة واحدة لأنها مجزئة لهم إذ كان الغرض إنما هو حركة تعتقب سكوناً؟ فقال: لو فعلوا ذلك لضيقوا على أنفسهم فأرادوا الاتساع في الحركات، وألا يحظروا على المتكلم الكلام إلا بحركة واحدة"[1].

إنّ رأي قطرب السابق يتحدث عن قضيتين مهمتين تعامل معهما العلماء على أنهما من المسلمات، ورأيه يغاير ما ثبت عند النحاة، ويخالفه كلياً، أما القضيتان اللتان تحدث عنهما فهما:

1- نظرته للحركات على أنها للفصل بين الصوامت، ولا علاقة لها بالإعراب، وهذا يغاير ما تعارف عليه النحاة وعلماء اللغة.

2- أما القضية الثانية فهي رفضه الربط بين الإعراب والمعنى، فالإعراب عند النحاة دال على المعنى، وقرينته الرئيسة، أما عند قطرب فلا علاقة بين الإعراب والمعنى؛ لأن الحركات ليست للإعراب من أصله.

إنّ رأي قطرب الذي أفضى به يثير جملة من الأسئلة، ومن أهمها:

1- هل سُبق قطرب إلى القول بدور الحركات بأنها للفصل بين الصوامت؟

2- هل واجه رأي قطرب الرفض من معاصريه؟

وهنا سأقف بداية على السؤال الأول: هل سُبق قطرب إلى الإشارة لدور الحركات وعملها؟.

لقد جاءت إشارة في كتاب سيبويه تتحدث عن دور جزئي للحركات، ولم يفصح فيها أن دور الحركات يتوقف على هذا الجانب؛ فقد جاء في الكتاب: "وزعم الخليل أنّ الفتحة والكسرة والضمة زوائد، وهنّ يلحقن الحرف ليوصل إلى التكلم به..."[2] فهو يشير إلى الحركات أنهنّ زوائد يتوصل بهنّ للنطق بالحروف، أي للفصل بينها ليسهل درج الكلام، ولكنه لم يقصر عمل الحركات على هذه الوظيفة، ولم يشر إلى رفض دورها في الإعراب، ولا إلى ربط الإعراب بالمعنى أو نفي ذلك، فهل أفاد قطرب من إشارة سيبويه، وبنى عليها رأيه في دور الحركات وعدم الربط بين الإعراب والمعنى؟ وإذا كان قطرب قد تتلمذ على سيبويه، ووقف على آرائه واعتدّ بها، فهل من الممكن أن يخالف أستاذه كلياً في قضية مفصلية، ومن أهم قضايا الدرس النحوي؟

لقد جاء رأي قطرب يغاير آراء أساتذته ومعاصريه، ولكن الذي لا يمكن تبيّنه هو: هل أفصح قطرب عن رأيه وسيبويه على قيد الحياة، أم أن رأيه قد جاء بعد سيبويه؟ أما التساؤل الثاني ففحواه: ما مدى مواجهة رأي قطرب بالرفض والمعارضة من معاصريه؟ وهذا تساؤل مشروع، إلا أن الإجابة عليه تثير الدهشة؛ فقد بقي رأي قطرب من المسكوت عنه إلى أن أثاره الزجاجي مع أنّ الفجوة بينهما بعيدة، فقد توفي قطرب 206هـ، وتوفي الزجاجي 337هـ فالفارق بينهما يزيد على (130) مائة وثلاثين سنة، فبعد هذه الفترة يثير الزجاجي هذه القضية بمناقشة رأي قطرب دون أن تصلنا أي ملاحظات من معاصريه أو من لاحقيه من علماء الدرس اللغوي عامة، والنحوي بخاصة، فما الذي جعلهم يحجمون عن إثارة هذه القضية إلى أن أثارها الزجاجي؟

لقد أشار بعض العلماء قديماً إلى أهمية الإعراب، وقد نص بعضهم على ربطه بالمعنى ودلالته عليه؛ فقد جاء في الصاحبي لابن فارس: "من العلوم الجليلة التي خُصت بها العرب الإعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يُعرف الخبر الذي هو أصل

الكلام، ولولاه ما ميز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت... وذكر بعض أصحابنا أنّ الإعراب يختص بالإخبار، وقد يكون الإعراب في غير الخبر أيضاً"[3] وقد بالغ ابن فارس عندما جعل الإعراب علماً خصت به العرب، فالإعراب ليس مقصوراً على العربية، "فهذه اللاتينية في العصور القديمة، والألمانية في العصر الحاضر، يشتمل كل منهما على قواعد وإعراب، ربما لا يقل في دقته وتنوعه عن قواعد العربية الفصحى. ومع ذلك لا تزال الألمانية لغة تخاطب بين الألمان، وظلت اللاتينية مدة طويلة لغة تخاطب بين الرومان"[4]. فالإعراب ليس موقوفاً على العربية كما يرى ابن فارس.

ولم يتوقف ابن فارس عند رأيه السابق في قضية دور الإعراب في الدلالة على المعنى، وجعله قرينة دالة عليه، فقد أشار في موطن آخر إلى ذلك بقوله: "فأما الإعراب فبه تميّز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين وذلك أنّ قائلاً لو قال (ما أحسنْ زيدْ) غير معربٍ لم يوقف على مراده"[5] ، وفي موطن آخر يقول: وللعرب في ذلك ما ليس لغيرها: فهم يفرّقون بالحركات وغيرها بين المعاني..."[6] ويظهر أنّ فكرة ربط المعنى بالإعراب، وأنّ العلامة الإعرابية دليل على المعنى كانت عند أكثر القدماء فكرة مسلمة، ورأي قطرب يمثل الشذوذ في مخالفته إياها. وقد جاء في الخصائص لابن جني في حديثه عن الإعراب ما نصه: "هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ، ألا ترى أنك إذا سمعت: أكرم سعيد أباه، وشكر سعيداً أبوه، علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول، ولو كان الكلام شرْجاً واحداً لاستبهم أحدهما من صاحبه"[7] إنّ الإعراب دليل على المعنى، وهذا هو السرّ في قداسة الإعراب ومكانته عند النحاة واللغويين، فهذا ابن يعيش يقول: "والإعراب الإبانة عن المعاني باختلاف أواخر الكلم لتعاقب العوامل في أولها"[8] يلاحظ أنّ آراء القدماء تتمحور حول دلالة الإعراب على المعنى، ولم يشيروا إلى أنّ عمل الحركات هو الفصل بين الصوامت، وقد بقي رأي قطرب منفرداً، وتوقفت الإشارة إليه على ما ورد عند الزجاجي في الإيضاح، على أهمية هذا الرأي الذي يمثل خلخلة لإحدى الثوابت في الدرس النحوي العربي، وهي من أهم الثوابت.

ولم يقف أمر الحركات ودلالة الإعراب على المعنى عند هذا الحدّ فقط، بل صرح (عبد القاهر الجرجاني) في دلائل الإعجاز بأن الألفاظ مغلقة على معانيها ومفتاحها الإعراب، فقد جاء في (الدلائل): "... إذ كان قد عُلم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأنّ الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها..."[9] وفي كلام الجرجاني ما يشير إلى مكانة الإعراب، وقيمته في الدلالة على المعنى حتى أنه جعل الإعراب يمثل مفاتيح الألفاظ المغلقة للكشف عن معانيها، وفي رأي الجرجاني درجة من التعصب للإعراب لا تخفى.

(صدى رأي قطرب في الحركات ودلالة الإعراب عند المعاصرين)

لقد كانت وظيفة الحركات عند القدماء أنها علامات إعرابية، والإعراب عندهم دليل المعنى باستثناء ما روي عن قطرب أنه يرى غير ذلك، أما المحدثون فقد اهتزّت هذه الثوابت عندهم،

ولم تعد لها المكانة والقداسة التي أخذتها عند القدماء؛ وقد انقسم المحدثون في آرائهم إلى ثلاث فئات: الفئة الأولى ترفض أن يكون عمل الحركات مرتبطاً بالإعراب، وترفض القول بدلالة الإعراب على المعنى وربطه به، والفئة الثانية تلتزم نهج القدماء بالقول: إنّ عمل الحركات ودورها مرتبط بالإعراب، والإعراب دال على المعنى، وهم يطرحون هذا الرأي على أنه من المسلمات، ويستهجنون رأي من يرفض ذلك أشد الاستهجان، أما الثالثة فهي الفئة التي اتخذت رأياً وسطياً يأخذ بدور الحركات في الإعراب، وكذلك دلالة الإعراب على المعنى، ولكن الحركات ليست الدليل الوحيد على الإعراب، والإعراب قرينة على المعنى، ولكنه ليس القرينة الوحيدة.

أما انقسام المعاصرين وموقفهم من رأي قطرب من حيث التبعية أو الرفض فقد انقسم المعاصرون في أرائهم في وظيفة الحركات الإعرابية، ودلالة الإعراب على المعنى ثلاثة أقسام: قسم اتبع رأي قطرب بنفي وظيفة الحركات الإعرابية والدلالة على المعنى وهم الذين خرجوا على المألوف، وقسم رفض رأي قطرب على الإطلاق وقال أصحابه بوظيفة الحركات الإعرابية، ودلالة الإعراب على المعنى وقد اتسم طرحهم بالتعصب، أما القسم الثالث فهم الذين اتبعوا الاعتدال والوسطية حيث أخذوا بوظيفة الحركات الإعرابية دون قصر الإعراب على الحركات، إضافة إلى أنّ الإعراب دالّ على المعنى ولكنه قرينة من عدة قرائن، وسأقف على آراء العلماء في هذه الأقسام الثلاثة مبيناً وجهات نظرهم.

أما الفئة الأولى من المعاصرين الذين التقطوا رأي قطرب وأخذوا به بشكل صريح فقد كان إبراهيم أنيس أولهم في قراءته لدور الحركات، وعدم دلالتها على الإعراب، وعدم دلالة الإعراب على المعنى، وقد جاءت قراءته هذه في كتابه: (من أسرار اللغة) إذ يقول فيه: "لم تكن تلك الحركات الإعرابية تحدد المعاني في أذهان العرب القدماء كما يزعم النحاة، بل لا تعدو أن تكون حركات يحتاج إليها في الكثير من الأحيان لوصل الكلمات بعضها ببعض. وقد قرر بعض المتقدمين من ثقات العلماء أنّ وظيفة الحركة الإعرابية لا تعدو أن تكون لوصل الكلمات بعضها ببعض في الكلام المتصل، لذلك جاز سقوطها في الوقف، وجاز سقوطها في بعض المواضع من الشعر..."[10].

يفهم من كلام أنيس السابق أنّ وظيفة الحركات تنحصر في وصل الكلام، وأنها (أي الحركات) ليست دالة على المعنى عند العرب القدماء، وما دلالة الإعراب على المعنى إلا زعم من النحاة لا مرجعية له في أذهان القدماء. وقد أخذ إبراهيم أنيس على العلماء الذين يقولون بدلالة الإعراب على المعنى ضعف حجتهم، وقد احتج برأي بعض القدماء إذ يقول: "تمسك معظم العلماء بالحركات الإعرابية، بل إنّ منهم من اعتبرها دلائل على المعنى. فالمبرّد وأمثاله ممن أبو إباءً شديداً حذف هذه الحركات الإعرابية، غير أنّ أبا علي الفارسي كان يجيز حذف هذه الحركات الإعرابية في بعض المواضع، ولا يرى يرى في هذا ماساً بالمعنى"[11]

إنّ رأي أبي علي الفارسي لا يشير إلى الدعوة إلى حذف الحركة الإعرابية على الإطلاق، وإنما أشـــار إلى حذفها في بعض المواطن، وهذا الحذف قد يعوض عنه بالقرائن الأخرى، كالســياق، والرتبة ولا ينفك إبراهيم أنيس محاولاً التأكيد على فكرته، وإتباع الأدلة، فهو يرى "أنّ تحريك أواخر كلّ الكلمات لم يكن في أصل نشأته إلا صورة للتخلص من التقاء الساكنين، غير أنّ النحاة حيث أعيتهم قواعده وشــقّ عليهم اســتنباطها؛ فصــلوا بين عناصــر الظاهرة الواحدة. ولعلهم تأثروا في نهجهم هذا بما رأوه حولهم من لغات أخرى كاليونانية مثلاً... فحين وافقت الحركة ما اسـتنبطوه من أصـول إعرابية قالوا عنها إنها حركة إعراب، وفي غير ذلك سـموها حركة أُتي بها للتخلص من التقاء الســاكنين... الأصـــل إذن في جميع كلمات اللغة ألا تحرّك أواخرها إلا حين يدعو النظام المقطعي وتواليه إلى هذا التحريك"[12].

وقـد ذهـب إبراهيم أنيس أبعـد من ذلـك؛ فلم يتوقف عنـد رفض فكرة الإعراب ودور الحركات، بل "يرى أنّ الإعراب لم يكن ســمة اللهجات العربية لتلتزم به، وإنما هو ســمة اللغة الأدبية التي نزل بها القرآن، ونظم بها الشعر، والإعراب عنده من الظواهر اللغوية التي عُني بها الخاصـــة من العرب؛ أما في اللهجات فلا وجود له بما يمثل قاعدة والتزاماً، وقواعده معلومة عند الخاصـة يلتزم بها فإذا خرج عنها عيب عليه، ويرى أنّ الإعراب مواضـعة بين الخاصـة ولم يكن مظهراً من مظاهر السليقة"[13].

وبما أنه يرى أنّ الإعراب مواضعة عند الخاصة من العرب، ولم يكن شائعاً في لغات العرب، ولم يكن سليقة أو مظهراً من مظاهر السليقة فإن هذا يعني أنّ الإعراب طارئ على العربية؛ لأنّ مفهوم الخاصـة لا بد أن يكون قد تشـكل، أو تشـكل حضـور الأفراد الذين يمثلونه في زمن ما، والأرجح أنه متأخر، كأن يكون بزمن الشعر الجاهلي، إضافة إلى نفي أن يكون سليقة، وما هو إلا تواضع وهذا يمثل نزع صبغة أو خصيصة التلازم بين العربية والإعراب، وكذلك بين الإعراب، والدلالة على المعنى. وإن كان بعض ما يطرحه أنيس مقبولاً إلا أنه ما من شك في وجود مبالغة في رأيه عندما يستبعد الإعراب من حيث أنه سليقة وطبع، ويرى أنه مواضعة متأخرة، وأنه عند الخاصة وليس عاماً في لغات العرب.

وممن قال برفض الإعراب، وعدم دلالة الحركات على وظيفة الإعراب: (جبر ضــومط) إذ يرى اعتبار الإعراب وحركاته أمراً ثانوياً لا جوهرياً في الإبانة عن الأغراض، وفي ذلك يقول: "العاقل يعلم أنّ علامات الإعراب في اللغة إنما هي من قبيل الأناقة، والمواضـــعة، لا من قبيل الجوهر، والحقيقة، فمن ثم قد لا يعدّ الإخلال بها إخلالاً يقضي على المخلّ بالجهل، وعلى الناقد بالفضل... ولو كان الإعراب أمراً جوهرياً في الخطاب، والكتاب لما سقط من العبرانية والسريانية خطاباً وكتابة وهما أختا العربية، ولما ســقط عن ألســنتنا في كل البلاد العربية حتى من على ألسـنة المشـتغلين بالنحو"[14]. إنّ رأي (ضـومط) السـابق يمثل رفضـاً مطلقاً للإعراب، ولا يعطي للحركات أي دور أصـــلي في الإعراب وربطه بالمعنى، ومع هذا الرفض المطلق الذي أبداه